مصير الحضارات

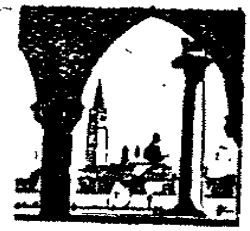

في سنة ١٨١٨ كتب الفيلسوف شوبنهور « العالم ارادة وفكرة » وهو كتابٌ منطوٍ على اشدِ حملةٍ حملها كاتبٌ على ايمان الانسان بالارتقاء والحضارة. وفي سنة ١٨٢١ مات الشاعر كيتس مسلولاً ويائساً بعد ما نظم شعراً سمويًّا تعطرهُ اوراق الخريف المتساقطة وتثقلهُ مأساة الآمال الخائبة . وفي سنة ١٨٢٢ مات الشاعر شلي غرقاً من غير ان يحاول تخليص نفسهِ على ما يرجَّح لانهُ كان قد « عاش طويلاً » على حد قول قيصر، ولم يهمهُ ان يعيش بعد انخذال الاحرار في اوربا . وفي سنة ١٨٢٤ مات الشاعر بيرون بداء الصرع مكتفياً بأن يرحل عن ارضٍ وصفها في قصيدتهِ « دون جوان » ذلك الوصف اللاذع المسموم . وفي سنة ١٨٣٥ نشر ده موسه « اعترافات ابن القرن » راسماً فيهِ عالماً خربًا وقوماً لا ينير سبيلهم شعاعُ املٍ . وفي سنة ١٨٣٧ مات بوشكين في روسيا وليوپاردي في ايطاليا بعد ما اعربا عن تشاؤم عصرهما وقوميهما بشعرٍ لم تساوهِ امتاهما من بعدُ

كان ذلك الجيل جيل تشاؤم وقنوط ويأس من امكان الارتقاء

ولكن لم يكد ينقضي النصف الاول من القرن التاسع عشر حتى اخذت حيوية اوربا تبدو من جديد واستأنف الكتاب والمفكرون حياتهم الادبية ونشاطهم الفكري . وأخذ العلم والاستنباط يبنيان الاساس الذي شيدت عليهِ انتصارات الحضارة العصرية في الصناعة والتطبيق . وأنشأت الآلات تحرر الانسان من ربقة الاستعباد لساعات طويلة من العمل المنهك وتفتح امامه ميداناً واسعاً من الراحة والنزهة والثقافة . وأصبحت السكك الحديدية والسفن البخارية وسيلة تربط بين الامم والحضارات وسبيلاً لتبادل البضائع والافكار . في هذا العصر نقع على فوز الدرامة الباهر . ففي سنة ١٨٣٠ مثلت رواية « هرناني » لڤكتور هوغو وذلك بعد ولادة ابسن بسنتين . وحوالي هذه الحقبة كان بلزاك وستندهال مشغولين بابلاغ الرواية ذرى الاتقان، وكان هوغو وهيني منهمكين بالشعر الغنائي حتى وصلا بهِ الى القمة. وكان سانت بوف وتان يصقلان اساليب النقد . فيهِ نشر تنسن وبرونتغ اول مؤلفاتهما الشعرية ودكنز وثكري رواياتهما . وكان تورجنيف ودستيوفسكي وتولستوي في دور التكون في روسيا . وكان دلاكروى يقيم القيامة في فرنسا على اساليب التصوير المقلدة وترنر في انكلترا يملأ لوحاتهِ بنور الشمس وبهائها . فيهِ كان دارون يجمع المادة

للكتاب الذي كان اقوى عامل في اتجاه الفكر الحديث وسبنسر يعدُّ فلسفتهُ النشوئية ورنان منهمكاً بكتابة « مستقبل العلم » الذي تقدّم بهِ كحملة المشاعيل ، حقبةَ الحضارة الحالية كان ذلك عصر نهضةٍ وانبعاث !

صورتان لحقبتين متعاقبتين في القرن التاسع عشر ، جاءت فيهما الحياةُ على اثر الموت وعقب التجديدُ الدمارَ . بهما يجب ان نحلل ونقيس التشاؤم الذي سيطر على النفوس والعقول عقب الحرب الكبرى . ان النظر المشارف في التاريخ هو ركن الحكم الصائب

وليست الحرب الكبرى العامل الاقوى في نشر هذا التشاؤم الفلسفي . ولكن الحرب تخيرت واوضحت بعض النزعات والآراء التي مازالت تستثار وتتجمع من بدءِ القرن العشرين. ان كاسندرا سپنغلر رسول هذا التشاؤم وضع اصول كتابه الذي عنوانهُ « انحطاط الغرب » ونظم فصوله في سنة ١٩١٤ قبل نشوب الحرب . ولكن المانيا لم تهلل لهُ وتسبغ عليهِ لقب اعظم كتاب فلسفي بعد نيتشه الاّ بعد ما ذاقت مرارة الخذلان . اما المستر منكن الناقد الاميركي فكان معروفاً من قبلُ بانهُ لا يرى خيراً في عصرهِ ولا املاً في المستقبل . ولكنهُ لم يصبح رائد الوف الشبان القائلين باحتقار الحضارة الراهنة وكرههم لها وسخريتهم منها الاّ بعد ما عانت الشعوب ما عانت من فظائع الحرب ومهازل السلام . ولولا الاعياء الناجم عن الحرب ، المتفشي في شعوب اوربا ، لما ارتفع صوت في ارجائها كصوت كيزرلنغ الالماني مؤكداً بأن « الحضارة القديمة تنخر فيها عوامل الانحطاط » . ان الاسقف انج وهيلير بلوك الانكليزيان لا يتفقان الاّ في اعتقادهما بأن الحضارة مقضيٌّ عليها

اما العوامل التي مهدت السبيل لهذه النظرية المظلمة فعديدة. اولها ان الكاتب الاميركي هنري ادمز نشر عقيدة تشاؤمٍ عمراني مبنية على القول الطبيعي بأن القوى تنحطُّ من مراتب عليا الى مراتب دنيا ولا ترتدُّ . وتلاهُ ماديسن غرانت فأقام الحجة على ان السلائل النوردية (الشمالية) قد افقرتها الحرب وأضعفها التزاوج فيما بينها وفاقتها شعوب البحر الابيض المتوسط في كثرة مواليدها ونزعت الزعامة منها باقتباس الدمقراطية وثورة الشعوب الاسيوية

وجاء لوثروپ ستودرَدْ الاميركي فنشر هذه الآراء بكثير من المقدرة وقليل من الحَذَرْ ثم انتظم الاستاذ وليم مكدوغل في الجوق ضامًّا صوتهُ الى اصواتهم . وفي اثناءِ ذلك قام عالِم من اكبر علماءِ الآثار المصرية ، السر فلندرز بتري ، واعلن على حدةٍ بان امتزاج السلائل لا بدَّ منهُ توطئة لكل حضارة جديدة . ولكنهُ رأى في امتزاج الشعوب الاوربية قضاءً على الحضارة الاوربية . فثقافة هذه الحضارة بلغت اوجها حوالى سنة ١٨٠٠ ثم اخذت تنحدر الى هوَّة الموت مع الثورة الفرنسية ولا بدَّ من انقضاءِ اربعة قرون او خمسة

قبلما يسفر امتزاج هذه السلائل عن سلالة خاصة مستقرّة تأخذ بالحضارة في دورٍ جديد . ثم ارتفع صوت سپنغلر القائل بان الحدّ الفاصل في الحضارة الحديثة هو العهد الدائر حوالي سنة ١٨٠٠ ب . م فقبل هذا الحدّ كانت الحياة قوية نشيطة زاخرة ، تنمو نموًّا داخليًّا وهو لباب النمو ، وترتقي في سلسلة محكمة الحلقات من حداثة النوطيين الى غوته ونبوليون. وعلى الجانب الآخر من هذا الحدّ الفاصل تقع على الحياة في طريقها الى الانحلال، حياة مصطنعة في المدن لا يصلها بالارض جذور ضعيفة او قوية متخذة اشكالاً يخلقها العقل ولا تبدعها الفطرة . . . فكلُّ ما علينا الآن هو المحافظة على تراث الماضي وصقله بدلاً من الخلق والابداع اللذين كوّنا مدرسة الاسكندرية الرياضية واواخر العهد الاغريقي. والخلاصة التي يفضي اليها بحث هذا الالماني هي هذه : « لقد انتهينا » . وهذه النتيجة محتومة حتماً فلسفيًّا في نظره. لانهُ ليس رجلاً عمليًّا. والظاهر انهُ لا يدري ان في الحياة ولها اسباباً لا يفهمها المنطق ولا يأخذ بها

وفيات الامم

ومع ذلك فلا نزاع في ان المذهب الذي ينادي به سپنغلر لهُ ما يؤيده . ولو هو كان قائماً على ما وراء الطبيعة وحدها لكنا نتجاهلهُ بهزة كتف وقلب شفة. ولكنهُ يقوم على حقائق مثبتة لا سبيل الى انكارها او تجاهلها . تلك هي حقائق التاريخ . التاريخ الذي تدوّن على صفحاته وفيات الامم . التاريخ الذي تقول اسمى شرائعه بأن لا بد لكل صاعدٍ من هبوط . ان وفيات الرجال والامم ، تبدو لنا واضحة جلية التفصيلات ، في مباحث المؤرخين والاثريين في القرن التاسع عشر . اننا لا نعرف عهداً سابقاً اكبَّ فيه الناس على درس الماضي كالقرن الاخير . فيه كشفوا عن حضارات بائدة وآثار مطوية في التراب وكم وقفوا امام هياكل النوابغ ومخلفاتهم موقف هملت امام جمجمة يناجيها. فهذا البحث ترك في نفوسنا اثراً من خيبة الآمال وايماناً بحتم الانحطاط والانحلال

واي مشهد من مشاهد الموت يكشف عنهُ التاريخ ! هذه مصر المجيدة ، تبني على الرمال امبراطورية اطول بقاءً من اي مُلْك عقبها ، وتشيد هياكل الفخم من هياكل اوربا ، وتحكم شعوب البحر الابيض المتوسط وتخط امراءها وكهنتها في « بيوت خالدة » — الخلود !. . لم يبق من كل ذلك الخلود الاَّ شعرٌ ابيض نامٍ على عظام يكاد يدبُّ فيها السوس . حتى في الاهرام تحس بدبيب الفناء . ان الرمال تهب عليها من الصحراء ولا يمنعها من ان تغمرها وتطويها الاَّ ما تنفقهُ الحكومة المصرية من مال لصيانتها . يشاهدها السائح ثم يحوّل وجههُ ليمسح عنهُ ما علق به من ذرات الرمال ، فيتجه خاطرهُ الى ما يكون

مصير هذه الآثار « الخالدة » اذا حبس عنها مال الحكومة قرناً او قرنين . ولعلّهُ يذكر حينئذٍ قصيدة شلي ، الكاملة من حيث هي قصيدة ، المروّعة من حيث هي صورة عمرانية !

في هذه القصيدة يصف الشاعر بقايا تمثال محطم الملك عظيم . هنا ساق مبتورة وهنا رأسٌ مهشّمٌ وعلى القاعدة هذه الكلمات « انا اوزيمانيداس ، ملك الملوك . انظروا الى اعمالي ايها الجبابرة واقنطوا » وحول بقايا التمثال تمتد الرمال القاحلة شاسعة مترامية الارجاء

او عرّج على اليونان ، وتوقل الاكمة حتى يفضي بك التوقل الى البارثنون وتذكر كيف قضى اكتينوس ومنسكليس تسع سنوات يشرفان على تشييد ذلك الهيكل المتقن كل الاتقان ، المتسق في جميع اجزائهِ المهندم في كل خطٍ من خطوطهِ حتى تكاد تلمسُ في منحنيات الخطوط لين الجسم الانساني وحرارتهُ . واذكر كذلك كيف قضى فيدياس وأعوانهُ تسع سنوات ينقشون تماثيل الافريز في الرخام ، تماثيل رجال لا يقع عليها نظر انسانٍ الاّ وتسمو في نظرهِ معاني الرجولة الجسدية . تماثيل آلهة تبدو في جلالها ووقارها آيات فلا يصدق رائيها ان آلهة الاقدمين كانت تقتل وتعذب . فقد ظلّ هذا الهيكل يتوج الاكروبليس قروناً عدة ، تلمع الوانهُ الزاهية تحت نور الشمس . لا يسمو اليهِ نظرُ جيل من الناس الاّ ويشعروا بأن في هذا الهيكل ، بانٍ الرجال مراتب آلهة ، ولو لحظة واحدة

ولكن الحرب نشبت سنة ١٦٨٧ . فافتتح الاتراك اثينا . وجعلوا البارثنون مخزناً للبارود . وبعث البندقيون بالسفن المسلحة الى مرفإ بيره فأطلق المدفعيون قنابلها ودمروا البارثنون . فاذا وصلت في توقلك لتلك الاكمة الى قمتها لتضع اكليلك المتواضع على مذبح الجمال والعقل تكاد لا ترى للپارثنون اثراً . هنالك بقايا من الرواق المعمّد قائمة كانها تنتظر زلزلة لتكمل تدميرها . ولكن اكثر البارثنون مائة الف الف قطعة من الحجر الناصع معفّرة بالتراب تحت قدميك . واذ تشيح بنظرك عن هذا المشهد تناجي نفسك قائلاً : هل هذه عبرة التاريخ . وهل يحتم على الانسان ان يبني ويشيد بتعب يديهِ وعرق جبينه وأماني نفسه وآلامها الوفاً من السنين لكي يدور الزمن على ما يبنيهِ ، في غير شعور او تقدير فيهدم ما شيّد ؟ الزمان طويل والفن عابر لا يقيم وأجمل الاشياء اسرعها الى الذوى والموت

كان البارثنون . وكانت بلاد اليونان . ثم جاءت روما فسيطرت على العالم المعروف سيطرة جبّار ، لم يدخل في روع احدٍ انهُ يغلب على امرهِ يوماً ما . ولكن اموراً خفيّة ، مثل تناقص المواليد ونضوب التربة ، كانت سبيل فنائهِ . لم يبقَ منهُ الاّ ذكريات يذكرها المستبدون ليقلدوها . لقد ذهبت كريت واليهودية وفينيقية وقرطاجنة وأشور وبابل وفارس — انها اشبه بآلهة قد فقدت المؤمنين بها الساجدين لجلالها ، او هي هياكل يقصدها السياح

ولا يرتفع في جنباتها صوت ابتهال واسترحام . ان ملاك الموت يرفرف عليها

ثم جاء دور اوربا — ايطاليا واسبانيا وفرنسا وانكلترا وألمانيا — فأنشأت حضارة تضاهي اعظم الحضارات التي شهدها التاريخ ، حضارة بنى ابناؤها كاتدرائيات تساوق البارثنون روعة وجمالاً ،وساروا بالعلم اشواطاً وراء ما بلغهُ اليونان ، وأبدعوا في الموسيقى ما لم تحلم بهِ القرون الغابرة ، ونظموا اساليب لجمع المعارف ونقلها تطبع العصر بطابع خاص وتميزهُ عن العصور السابقة . ولكن سبنغلر ينهض في هذه الحضارة ويقول لابنائها: انتم اموات . اني ارى فيكم كل اعراض الانحلال والموت . فكل منشآتكم — دمقراطيتكم وارتكابكم السياسي — مدنكم العظيمة وعلمكم وفنكم واشتراكيتكم وألحادكم وفلسفتكم — حتى وعلومكم الرياضية — كلها اعراض امتازت بها عصور الانحلال في الامم البائدة . ولن ينقضي قرن عليكم الاّ وقد اتخذت الحضارة موطناً لها بعيداً عن مواطنكم. هذا هو عصركم الاسكندري

وها هي ذي اميركا تبني حضارة على ركن اوسع من اركان الحضارات السابقة . وقد تستطيع ، لذلك ، ان تبلغ اجوازاً من العلوّ ، لم تبلغها أية حضارة اخرى . ولكن اذا صدقنا عبر التاريخ ، واذا كنا نجد في الماضي نوراً ما نلقيهِ على المستقبل نتبين بهِ بعض اسرارهِ ،فهذه الحضارة الاميركية كذلك ، مقضي عليها بالزوال .هذه هي الصورة التي يراها المؤرخ في المستقبل، كما يستخرجها من الماضي . ويخرج من ذلك بان امراً واحداً لابدّ منهُ في التاريخ وهو الانحطاط والانحلال .كالامر الذي لامفرّ منهُ في الحياة ، وهو الموت

الحضارة والاقتصاد

هي صورة مظلمة . فهل هي صورة صادقة ؟

ما الحضارة ؟ هي مزيج معقد من الثقافة وضمان الحياة،من النظام والحرية . اما الضمان السياسي فقائم بالآداب والقانون . واما الضمان الاقتصادي فقائم بالانتاج الدائم والتبادل المستمرّ . واما الثقافة فاسبابها نمو المعارف والاداب والفنون ونقلها من جيل الى جيل . وهذا المزيج معقد التركيب دقيقهُ شديدالاحساس يرتجّ لاقل صدمة لانهُ يتوقف على عشرات من العوامل الاخرى،كل واحد منها في امكانهِ ان يرفع او ان يخفض،ان يحيي او ان يميت. فلنأخذ هذا « التعقيد » ولنحللهُ لدرس عواملهِ المختلفة

العوامل الاقتصادية اساسية لان الارض مقدّمة على الانسان ومع ان الانسان يطبع بيئتهُ بطابعهِ الخاص بقدر ما تطبعهُ هي بطابعها، فلا بدّ من ان يكون لهُ بيئة اولا يخضعها لنفوذهِ. والاحوال الاقليمية قيود تحدّ من سيطرة الانسان على الارض . فاذا قلّ سقوط المطر في

بقعة ما قلة متدرجة الى حدّ معين قضي على الحضارة القائمة فيها كما حدث لاشور وبابل، او كما وقع لتلك الحضارة البدائية التي كشف عنها اندروز في صحراء غوبي. ويلي الاقليمَ خصبُ التربة. وليس خصب التربة مما لا يستغنى عنهُ لان اثينا وروما وحضارتيهما نشأتا في بلاد كثيرة الصخور والمستنقعات والرمال. على ان جيوش روما اكتسحت بلاد اليونان فلم يلبث نضوب الحيوية من التربة الرومانية حتى قضى على روما. فتجني الوسطاء على الفلاحين وابدال الفلاحين الملاّك بفلاحين مأجورين وما ينجم عن ذلك من اهمال الفلاحة والحراثة، اضرّ بروما ضرراً بالغاً. وعلى الضدّ من ذلك نجد ان خصب التربة الصينية الذي لا ينفد هو سبب عودة الحضارة اليها وازدهارها فيها بعد انحطاط وانحلال. ان الحضارة لا تسير غرباً كما قال احدهم بل تتجهُ الى البلاد التي فيها حقول بكر. ومهما قلنا في الموضوع ان حراثة الارض تسبق حراثة النفس والارض تخرج معادن كما تنتج اطعمة. وفي بعض الاحايين قد يكون الذهب والفضة او الحديد والفحم اقوى اثراً في مصير قوم من الحنطة والذرة. فمن العوامل التي اضعفت اليونان نفاد مناجم الفضة في «لوريوم». ومما اضعف روما نفاد مناجم الفضة في اسبانيا. ولا بدّ ان يدبّ الانحلال الى بريطانيا ساعة تبدأ باستيراد الفحم بدلاً من تصديرهِ. وقد يتاح للصين ان تقود العالم في معارج الحضارة متى استطاعت ان تستخرج الكنوز المعدنية المطمورة في ثراها. كتب بروكس ادمز كتاباً اشار فيهِ الى انتقال الزعامة الصناعية من بريطانيا الى المانيا بعد ما ضمت هـذه مقاطعتي الالزاس واللورين (وهما غنيتان بالحديد والفحم) سنة ١٨٧١ كما اشار الى نشأة الزعامة الصناعية الاميركية بعد مافتحت مناجم الفحم في بنسلفانيا سنة ١٨٩٧ حينئذٍ حاولت اوربا ان تنشب اظفارها في الصين لتقتسم فحمها واحتلت الولايات المتحدة الاميركية جزائر الفيليبين لتنفيذ سياسة « الباب المفتوح » اي لتشترك مع دول اوربا في اقتسام الاسلاب

ففي الحضارة العصرية الفحم ملكٌ. والبترول ولي عهدهِ. والقوة الكهربائية تدعى العرش

ومن اهم العوامل الاقتصادية في نشوء الحضارات ومصيرها المقام الجغرافي والتجاري اذ لا بدَّ من ان تخترق البلادَ خطوطٌ تجارية اذا شاءت ان تتاح لها فرص التبادل التجاري والثقافي الذي يذكي الهمم ويلقح القرائح. هكذا نشأت اليونان بعد افتتاحها لطروادة وسيطرتها على بحر ايجه. هكذا بنت روما امبراطوريتها بعد قهرها لقرطجنة وبسط نفوذها على البحر الابيض المتوسط. لقد نشأ سرفانتس الاديب وفلاسكز المصوّر في اسبانيا لانها كانت في خط المواصلات مع العالم الجديد. وبعثت الحياة عصر النهضة في ايطاليا لان مرافئها كانت مركز التصدير والاستيراد بين اوربا والشرق. وكانت النهضة في روسيا بطيئة الخطى لان مسير القوافل

بعد القرون الوسطى حلّ محلّهُ مسيرُ السفن في البحار . ونزل الفناء على روما عاصمة الامبراطورية العظيمة لما نقل قسطنطين الكبير عاصمتهُ منها الى بزنطية الواقعة على مفترق الطرق التجارية بين روسيا والمانيا والنمسا والشرق الادنى . واخذت حضارة ايطاليا في سبيل الانحدار لما كشف كولمبوس عن اميركا . وتحوّل مركز الحضارة من البحر الابيض المتوسط الى شمال الاتلنتيكي على أثر التغيُّر الذي اصاب سبل التجارة . وقد يكون الطيران التجاري سبباً في قيام مراكز للحضارة في داخلية البلدان بدلاً من مرافئها لانها تصبح حينئذٍ اقصر الطرق بين مراكز التجارة الكبرى . كانت عبارة « برلين الى بغداد » حلماً ولكن الطيران قد يجعلها حقيقة واقعة . وقد تزدهر سهول روسيا الشاسعة تحت جوّ يعجّ بالطيارات متى اصبحت الصين اكبر منافس للغرب واكبر عميل لهُ

وآخر العوامل الاقتصادية هو عامل الصناعة . وتاريخها حديث العهد لا يمكننا من معرفة اتجاههِ والحكم عليهِ . ولكن الصناعة مصدر ثروة وسبيل اجتماع شعوب كثيرة في بقع ضيقة فتجبي منهم الضرائب . وارباحها يمولون النزعات الامبراطورية ويؤيدون السيطرة السياسية ولكن هل الصناعة من عوامل الحضارة ؟

الصناعة تملي من شأن الكمية وتهمل النوع والفن . كان زمان وكانت فيهِ كل صناعة فنًّا اما اليوم فكل فنٍّ صناعة . هل تسيطر الآلة على الانسان وتطبع نفسهِ بطابع خشنٍ فلا يقبل بعد ذلك ليناً للفن ولا نموًّا روحيًّا . ان بريطانيا الصناعية لم تنجب ادباً يضاهي ادب العصر الاليصاباتي . ولا علماً محضاً يوازي علم العصر النيوتوني . ولا تصويراً مثل تصوير العصر الذي بدأ برينلدز وانتهى بترنر . ان عصر المانيا الزاهي بدأ بفردريك الكبير وغوته وكانت وبيتهوفن وانتهى ببسمارك وفون ملتكي — دم وحديد وفحم . ولقد كان ارتقاء الصناعة في فرنسا اقل منهُ في انكلترا والمانيا ، لذلك كانت اكثر منهما تثقفاً . فأينع النبوغ الفرنسي في كل عصر من العصور التي تلت موليير . اما الآن وقد فازت فرنسا بفحم الالزاس واللورين وحديدهما فقد تستدبر الفن وتستقبل الصناعة

هي التجارة ، لا الصناعة ، التي الهمت العقول واذكت النفوس وخلقت العصور الذهبية في الحضارة الاوربية . ولكن الصناعة لا تزال في حداثتها والماضي لا يجلو المستقبل . ومن يدري ان الثروة التي تجمع بالصناعة الآن لا توفر لنا من الوقت فراغاً للتفكير والتعلُّم . . . والحياة !

في الشهر القادم
تتمة البحث وهي تتناول
الحضارة والبيولوجيا
الحضارة والسسيولوجيا
بقاء الحضارات